مقدمة

قد نوهنا في الكتاب الأول من هذه السلسلة المسماة (وجادلهم بالتي هي أحسن) أن الهكسوس هم اليهود، وبرهنا على ذلك بأدلة عديدة سقناها في مقدمة الكتاب الأول، كما أوضحنا ماهية القوم وعقائدهم وشرائعهم ومن إلههم المفضل، وبينا أن هذا الإله هو مزج لعدة آلهة تمثل محور الشر في الديانات السابقة لهم كالإله (ست) عند المصريين (إله الشر)، والإله (بعل) والإله (سوتخ) وغيرهم من الآلهة التي لا ترضى عن أي شخص كائناً من كان إلا بذبح القرابين البشرية على مذابحها، وأن هؤلاء القوم اتخذوا أصناماً عدة كملكوم والحية النحاسية والعجل الذهبي الذي نسبوا صناعته لنبي الله هارون ذاته، وكم استهان هذا الشعب بكل القيم الموجودة من حوله وبكل الآيات المرسلة لهم، بل بإله بني إسرائيل الفعلي ذاته، والذي خلصهم من عدوهم الأكبر فرعون مصر، وكم ضرب لهم من العجائب في الشعب المصري الذين وصفتهم التوراة بأنهم كانوا يتعاملون معهم على أنهم نجس ورجس على خلاف ما توضحه كل الوثائق القديمة من برديات وحفائر حجرية بأنهم شعب متقدم ومتسامح مع جميع الشعوب التي تتعامل معهم.

وجدير بالذكر هنا أن نذكر بمدى الحروب التي كانت بين بني إسرائيل والشعوب الأخرى (الأغيار)، بل بينهم وبين أنفسهم، مما أسفر عن انقسام إسرائيل ذاتها إلى مملكتين منفصلتين، أذاقوا بعضهم البعض ويلات الحروب، إلى أن حل وقت السبي البابلي، مما أتاح الفرصة لمؤرخي وكتبة التوراة أن يصيغوا هذا الكتاب بشكل يجعل له نوع من المصداقية رغم أنه ذو نظرة أحادية دائماً، هذه النظرة دائماً وأبداً تصب

البركات عليهم وتلعن لاعنيهم وكل من حاربهم، على الرغم من أنهم أهل غدر وغش وقساة القلوب وأولاد زنا، ليس هم فقط بل وأنبياؤهم أيضاً كما تصفهم التوراة – حاشا لله – ولكي يضفوا على هذا التحايل وتزوير الواقع والحقائق شيء من المصداقية كان لابد أن يأخذ هذا الكتاب شكلاً لاهوتياً وكهنوتياً، فتأثر الكتاب بما تأثر به بنو إسرائيل أنفسهم، بالديانات التي تعايشوا معها من قبل وخصوصاً الديانة المصرية ذات الصيت الذائع والتي أقاموا فيها أربع مائة عام كما تقول التوراة نفسها.

وعليه كان لابد أن نناقش التأثير المصري على الشكل النهائي الحالي للديانة اليهودية، ببحث هذا التأثير في قصة رسول اليهودية الأعظم ومشرعها الأول (موسى) عليه السلام. حيث إن موسى عليه السلام – وكما أخبرتنا التوراة وفي أكثر من موضع – قد تعلم وتهذب بحكمة وعلوم المصريين في (عين شمس) مركز العقيدة الشمسية (الهليوبولوتية).

المؤلف

نبدأ القصة، منذ مولد فطفولة موسى عليه السلام، أخبرتنا التوراة أنه كان متزامناً مع أزمة شديدة في مصر عانى منها العبرانيون أيما معاناة، وهذا الميلاد هو بداية الانفراج، أي عند استفحال الأزمة وبلوغ قمتها، وقد أتى هذا الميلاد بعد مرور (٣٥٠) سنة من دخول هذا الشعب إلى مصر، وقد تمثلت هذه الأزمة في الظلم والاضطهاد المصري لهم، وهذا العسف قد تمثل في الاستعباد الجماعي لهم، وحرب الإبادة بقتل المواليد الذكور، وهنا يبرز تناقض منطقي نستطيع مناقشته كالتالي:

إنه من المعلوم أن حروب الإبادة التي تتمثل في قتل المواليد لا تتم أو تحدث إلا بإحدى اثنتين: الأولى، القتل الجماعي، والثانية، القتل الانتقائي، أما عن الأولى وهي القتل الجماعي كانت لا تحدث إلا مع أمم محاربة قوية تم كسر قوتها ويراد القضاء عليها وقطع واستئصال شأفتها تماماً في مدة جيل واحد، وعليه لا يمكن تطبيق هذا الأمر على شعب مستعبد ومستغل كقوة عاملة، إنه أمر غير صالح وحكيم مع العبرانيين وخصوصاً أن أعدادهم تزيد بشكل هائل، وصل إلى ٦٠٠,٠٠٠ رجل عند الخروج عدا الأطفال والنساء حسب ما وصفته التوراة ذاتها.

أما عن الخيار الآخر وهو القتل الانتقائي، فإذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذا العدد المذكور من الرجال فقط هو نصف الشعب إذا أدخلنا في التعداد النساء والأطفال، فيكون لدينا شعب ضخم تعداده فاق الرقم مليون. أي أن هذا الشعب يتضاعف بعشرات الآلاف مرة في مدة ١٥٠ سنة، وهذا النوع من التكاثر لا يمكن حدوثه إلا في حالات البكتيريا وليس في الأجناس البشرية، خصوصاً إذا علمنا أن تعداد الشعب المصري بأكمله بلغ من ٣ - ٤ ملايين نسمة في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، مما يجعل الرقم التوراتي رقماً مزيفاً تماماً، ولا يعتمد على أقل تقديرات منطقية اللهم إلا الاعتماد على أمنية إكثار النسل العبراني كمقدمة للاستيلاء على أراضي الشعوب الأخرى، مما يعكس الاتجاه الفكري العبراني، المتمثل في بلورة صورة العهد والوعد الإلهي لإبراهيم عليه السلام، أي قبل ظهور أية إرهاصة لتكوين الشعب الإسرائيلي ذاته، تقول التوراة على لسان الرب محدثاً إبراهيم: [«انظر إلى السماء وعد النجوم إن استطعت ذلك»، ثم قال له: «هكذا يكون نسلك»] (تكوين ١٥ : ٥)، وفي المزمور (١٠٥) عن بني إسرائيل تجد العبارات التالية: [إذ كانوا قلة بعد، نفراً ضئيلاً متغربين في

الأرض متنقلين من أمة إلى أمة، ومن مملكة إلى أخرى.. ثم جاء يعقوب إلى أرض مصر، تغرب يعقوب في بلاد حام.. فكثر الله شعبه، وجعله أقوى من أعدائه].

نعود لنقطتنا محل النقاش أن ملك مصر في هذا الوقت كان يصنع محاولات يائسة جداً تدل على الضعف، من رشوة القابلات العبرانيات ليقتلن المواليد العبرانيين بشكل انتقائي مما يظهر أن هذا الملك - حتى في هذا الأسلوب لإفناء هذا الشعب - كان يملك جهازاً استخباراتياً غير جدير بمراقبة القابلات، مما سمح لهؤلاء القابلات أن يعبثن بلحية هذا الملك وأخذ ماله دون تطبيق أوامره، ودل على ذلك التضخم السكاني المتزايد لهذا الشعب.

ونراه من هذا الأسلوب قد اعتمد تكتيكاً آخر أكثر واقعية أو بالأحرى أكثر يأساً، وارتأى هذا التكتيك أفضل من الإبادة الجماعية، وهو أسلوب القتل الانتقائي لهذا الشعب، لكي يتبقى منه قوة بشرية كأيد عاملة، مما ينسجم مع ما ادعته التوراة عن الرق والعبودية الإسرائيلية في مصر.

ولهؤلاء نقول إن أسلوب القتل الانتقائي الفرعوني قد تمثل في أمرين:

أولاً: الانتقاء الجنسي: وعنه تخبرنا التوراة أن الفرعون قد أمر بقتل المواليد الذكور دون الإناث، هذا يتنافى مع فكرة الرق والعبودية المزعومة، لأن الذكور هم الفئة الأقدر والأقوى على القيام بأي عمل شاق، وقتلهم سيؤدي بالتبعية إلى تدهور الحالة الإنتاجية لتلك المجموعة من العبيد، والأهم من ذلك أن فكرة قتل الذكور فقط هي فكرة فاشلة وغير منطقية علمياً وتاريخياً لهؤلاء العبرانيين، لأنه من المعلوم أن ذكراً واحداً يستطيع تلقيح العديد من النساء وإنتاج عدد كبير من الذرية والعكس غير صحيح، وخاصة أن تعدد الزوجات كان أمراً متعارفاً عليه في الشرائع العبرانية حتى نهاية تاريخهم في المنطقة.

نستنتج من هذا أن أسلوب الانتقاء الجنسي في الإبادة بهذه الطريقة، كما ادعت التوراة ليس في صالح فكرة العبودية الإسرائيلية، بل يثبت أن الشعب كان يمثل خطورة حربية معادية متوقعة، مما جعل الفرعون يفكر جدياً في كسر شوكتهم وقوتهم الحربية، بقتل الذكور، ويجعل منهم أمة نسائية غير قادرة على حمل السلاح، أي ببساطة شديدة

أن هذا الشعب لم يكن مستعبداً في مصر، ولم تكن أيديهم العاملة ذات أهمية تذكر في اقتصاد الدولة.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا في ساحة النقاش هو: لماذا ادعى كاتبو التوراة فكرة إرادة الفرعون أن يقتل ذكورهم دون الإناث بقصد الإبادة؟

والإجابة على هذا السؤال بسيطة جداً وتظهر بوضوح لو استدعت الذاكرة التاريخية فكرة محاولة قتل (المخلص) بيد (الحاكم الظالم) كما تظهر الكتب السماوية وغيرها، فنفس الوضع ولد فيه المسيح وكرشنا الهندي وبوذا الآسيوي، وغيرهم، كما لا يفوتنا – وهنا بالذات – أن الأم (إيزيس) قد أخفت ابنها الإله (المخلص) والمسمى (حور) في طفولته عن أعين الإله (ست) عدو أبيه، الذي أراد قتله أيضاً، مما يظهر أن كاتبي التوراة أخذوا نفس الفكرة وأعادوا صياغتها على مخلصهم الأول (موسى) عليه السلام بشكل فولكلوري ساذج وعلى غير دراية بواقعهم أنفسهم على الأقل بعد الخروج، وأن هذا الأمر لا يحدث إلا في حالات الحروب والعداء لإبادة الشعوب بشكل كامل ونهائي، وليس مع شرذمة من العبيد كما يدعون، وكما يريدون أن يصوروا للدنيا بأسرها أنهم شعب مغلوب على أمره ومقهور دائماً، والله المستعان على ما يصفون، فهذا دأبهم منذ بدايتهم حتى مع أبيهم إسرائيل (يعقوب) ذاته.

ثانياً: الانتقاء الترتيبي في القتل، وتخبرنا التوراة أن هذا القتل كان يقع على أحد الذكور وترك الآخر ليحيا، وهكذا، وإذا أخذنا أسرة عمرام ويوكابد كمثال لتطبيق أسلوب الانتقاء الترتيبي في القتل، نجد أن مريم الأخت الأنثى تركت لتحيا بحكم أنها أنثى، ثم ترك بعدها هارون الابن (البكر) والذي ولد قبل موسى بثلاث سنوات ليحيا، أما الدور في القتل فقد كان من نصيب موسى، لتتكرر الدورة بشكل منتظم، وهذا الوضع مماثل تماماً لما كان الرومان يفعلونه في عقاب أي مدينة، فكانوا يتركون تسعة من السكان ويقتلون العاشر، وهكذا بشكل دوري ومنتظم، وهذا الأمر غير بعيد عما فعله ملك إسرائيل الأول داود ذاته، تقول التوراة: [وقهر أيضاً الموآبيين وجعلهم يرقدون على الأرض في صفوف متراصة، وقاسهم بالحبل. فكان يقتل صفين ويستبقي صفاً. فأصبح الموآبيين عبيداً لداود يدفعون له الجزية] (٢ صم ٨ : ٢)، وعليه نستطيع أن نرى أن الفرعون كان يطبق أسلوباً عقابياً متعارفاً عليه في التاريخ القديم لإذلال الأمم وعقابها وكسر قوتها الحربية. ونستطيع

أن نلمح بوضوح فكرة أن هذا الشعب كان أمة حربية قوية يعمل لها حساباً وليست أمة مستعبدة بمجرد قراءة هذه السطور من التوراة على لسان الفرعون: [فقال لشعبه: «ها بنو إسرائيل أكثر منا وأعظم قوة، فلنتآمر عليهم لكيلا يتكاثروا وينضموا لأعدائنا إذا نشب قتال ويحاربونا ثم يخرجوا من الأرض] (خروج ١ : ٩، ١٠)، وأيضاً: [ثم قال فرعون (لموسى وهارون): هو ذا شعب الأرض قد كثر الآن، وأنتما تريدان أن تريحاهم من الأعمال الشاقة] (خروج ٥ : ٥)، وكذلك فإن حربهم النهائية مع الفرعون كانت مشوبة بأعمال سلب ونهب واسعة النشاط، تقول التوراة: [وجعل الرب الشعب يحظى برضى المصريين، فأعطوهم كل ما طلبوه، فغنموا من المصريين] (خروج ١٢ : ٣٦)، ولنا طبعاً أن نقدر (رضا المصريين) هذا عن أعدائهم وسط حرب عاتية، ولنا أيضاً أن نقدر حجم ما غنمه هذا الشعب المستعبد وعن تملكه لمئات الآلاف من رءوس الماشية، وأطنان هائلة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة أثناء التيه في صحراء سيناء[١]، وعلينا في النهاية أن نقرأ بتمعن هذا السطر التوراتي المأساوي لشعب مطرود ومستضعف عاش في مصر حياة الرق والعبودية والهوان تقول التوراة: [وكان بنو إسرائيل قد غادروا مصر متسلحين متأهبين للقتال] (خروج ١٣ : ١٨).

وهنا لابد أن نتساءل: لماذا اعتمد الفرعون هذا النسق الذي كان يترك للعبرانيين أبكار مواليدهم للنجاة من القتل؟ أي لماذا كان حكم الفرعون بترك هارون (البكر) مثلاً، وقتل موسى الأصغر؟ ولماذا ترك كل رءوس الأسباط الأبكار الإسرائيلية لنراهم في مرحلة لاحقة يقدمون القرابين في صحراء التيه للإله (يهوه) بعد خروجهم من مصر كعشائر تقودها أبكارها التي تم تقديسها كرؤساء قبل الخروج مباشرة من مصر؟ يقول الرب لموسى: [خصص لي كل بكر ذكر. كل فاتح رحم من بني إسرائيل فهو لي. كل بكر من الناس أو البهائم]. (خروج ١٣ : ٢، ٣).

ويقتضي المنطق أن الفرعون كان يريد عقاب العبرانيين بشدة لإذلالهم وردعهم، ورغم ذلك فإنه ترك لهم أبكارهم، مما يظهر تناقضاً ما مع هدفه المبدئي المعلن، مما يتنافى مع الفكر الانتقامي والعقابي، والذي من سماته إيقاع أقسى أنواع الألم، وعلى الرغم من أن الفكرة الانتقامية ذاتها كانت المحرك الذي دفع كاتبي التوراة لاختراع أسطورة مضادة

(١) انظر قصة العجل الذهبي في التوراة والقرآن على حد سواء.

حول هذه النقطة بالذات متمثلة فيما أسموه «ضربة الرب العاشرة للمصريين»، تلك الضربة التي أدت إلى قتل كل أبكار الذكور المصريين، من بكر الجالس على العرش، إلى بكر المرأة الفقيرة الجالسة أمام الرحى كما قالت التوراة ذاتها، تلك الأسطورة الانتقامية الكهنوتية التوراتية التي ما أثارت عندي إلا شهية النقد لما عكسته عن طبيعة الفكر العبراني الرعوي لا غير، كما أن القرآن الكريم لم يذكر لنا مطلقاً أي شيء عن تلك الضربة العاشرة تلك، يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ...﴿١٠١﴾ ﴾ [الإسراء]، ويقول تعالى: ﴿ ...فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ...﴿١٢﴾ ﴾ [النمل].

ويبقى السؤال: لماذا ترك الفرعون أبكار العبرانيين أحياء؟

وفي واقع الأمر نستطيع الاقتراب من إجابة منطقية على هذا السؤال بعد قراءة هذه الكلمات التوراتية المتعلقة بأسلوب القتل: [ثم أمر فرعون جميع شعبه قائلاً: كل ابن[1] يولد تطرحونه في النهر] (خروج ١ : ٢٢). وهنا تتجلى لنا قضية القربان المتبع في كل الديانات القديمة والحديثة، والواضح من قتل الذكور كعقاب من جانب الفرعون، إنما كان يتم كطقس من الطقوس الدينية الأخرى، وكان يتم تحت مظلة دينية تعطي تبريراً من وجهة النظر الكهنوتية لمثل هذا النوع من القتل، ويبدو أنه كان هناك اتفاقاً عرفياً بين الفرعون وتلك القبائل الخاضعة للسلطة يقضي بأن يتم قتل الذكور كقرابين مثلاً لإله النهر (حعبي)، بنفس أسلوب عروس النيل، وتقديس الغرقى مثلاً في مذهب الإله أوزير، إعطاء هذا القربان في حد ذاته كان يبلور رمزية الخضوع العبراني للهيمنة والسلطة المصرية بجانب الأهداف الأخرى، وظلت هذه القبائل تعبد أوثان ملكوم والبعل لعدة قرون بعد ذلك الزمن، وتقدم أبناءها كقرابين بشرية تحت أقدام هذه الأصنام، فلم تجد هذه القبائل غضاضة تذكر في تقديم أبنائها كقرابين للآلهة المصرية، عدا أبنائهم الأبكار فكانوا يدفعون الفدية لهم للإبقاء على حياتهم المرغوبة لتقديمهم قرابين بشرية لآلهتهم هم أنفسهم حسب التشريع والقوانين العبرانية والتوراتية لاحقاً، فقد كان هذا الاتفاق يتم بشكل متوازن ومرض لكلا الطرفين. جاء في التوراة: [فقالوا لهما[2]: ينظر الرب إليكما ويقضي. لأنكما أنتنتما رائحتنا في عيني فرعون وفي عيون عبيده

(١) عبراني.

(٢) المقصود قول العبرانيين لموسى وهارون في النص.

حتى تعطيا سيفاً في أيديهم ليقتلونا]. (الخروج ٥ : ٢١)، وتقول أيضاً: [وقالوا لموسى: هل لأنه ليست قبور في مصر أخذتنا لنموت في البرية. ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر. أليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر قائلين كفا عنا فنخدم المصريين. لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية] (الخروج ١٤ : ١١ – ١٢). وذكرت أيضاً: [واللفيف الذي في وسطهم اشتهى بشهوة. فعاد بنو إسرائيل أيضاً وبكوا وقالوا من يطعمنا لحماً. قد تذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجاناً والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم] (العدد ١١ : ٤ – ٥).

وهناك العديد من النصوص التوراتية تفصح عن طبيعة العلاقة بين الطرفين، كما تفصح أيضاً عن رضا بني إسرائيل بهذه العلاقة وأنهم غير مضطهدين من جانب الممارسات المصرية، فنجد على سبيل المثال وليس الحصر: [لا تكره أدومياً لأنه أخوك، ولا تكره مصرياً لأنك كنت نزيلاً في أرضه. الأولاد الذين يولدون لهم في الجيل الثالث يدخلون منهم في جماعة الرب] (تثنية ٢٣ : ٧ – ٨)، وعن تمردهم على موسى ذاته في صحراء التيه تقول التوراة: [ولماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف. تصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة. أليس خيراً لنا أن نرجع إلى مصر.فقال بعضهم لبعض نقيم رئيساً ونرجع إلى مصر]. (عدد ١٤ : ٣ – ٤)، وعلى هذا الرضا عن مصر وحكامها وممارساتها المألوفة للعبرانيين أنفسهم، فإنه من المحتمل، أن قتل المواليد العبرانيين، كان يستثني الأبكار، ويتم في شكل طقوس القربان لآلهة الأمة المسيطرة، مما جعل هذا الأسلوب يمثل نوعاً من الترضية للطرفين على حد سواء، وهنا يبرز سؤال عن محاولة إخفاء أم موسى لموسى كما في النص التوراتي القائل: [فحملت المرأة وأنجبت ابناً، وإذ راقها جماله خبأته ثلاثة أشهر] (خروج ٢ :٢) وفي نسخة أخرى: [فحبلت المرأة وولدت ابناً ولما رأته أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر] (خروج ٢ : ٢)، والإجابة تتضح بجلاء من السياق بأن سر تخبئة موسى لم يكن لأنه الابن البكر بل لأنه حسن الوجه، كما هو معلوم من أن هارون أخو موسى هو الابن البكر كما سبق وأن أشرنا.

وبمعنى آخر أن هذا الابن لو كان قبيحاً لقدمته للقتل بتلقائية دون أدنى محاولة لإنقاذه مثلاً، وحري بنا في هذا الموضع ذكر الآيات القرآنية التي تذكر عبادة العبرانيين في مرحلة ما قبل موسى لفرعون ذاته كإله، أو لآلهة المصريين، يقول تعالى على لسان

فرعون وملئه: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المؤمنون]، ويقول سبحانه وتعالى على لسان موسى لفرعون: ﴿ وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الشعراء]، وأيضاً: ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ ...﴿١٢٧﴾ ﴾ [الأعراف].

وعليه فإن خلاصة القول هي أن الوضع السياسي[1] كان بين أمتين: أولاهما تم غزو أرضها بمجموعات (استيطانية) كثيفة من الرعاة الرحل وبصورة متدرجة ومتزايدة هدفها (التوسع)، حتى صارت هذه القبائل الرعوية الوافدة شعباً ضخماً ذا قوة حربية وعسكرية هائلة، سيطر على مقاليد الأمور في وقت ما على البلاد كلها تقريباً حتى استعادت تلك الأمة التي تم غزوها عافيتها، وشنت حروباً ضخمة أدت لكسر قوة القبائل الغازية العبرانية الرعوية، تلك التي وقعت تحت طائلة عقوبات اجتماعية ومادية ذات صبغة دينية لقرون طويلة، حيث تم فرض العبادات والطقوس الدينية المصرية على فلول القبائل العبرانية، حتى ظهر (المخلص) في شخصية موسى والذي واكب ظهوره مرحلة من الضعف والانحلال في القيادة المصرية المسيطرة آنذاك، فكانت مهمته يسيرة في شن حروب مضادة أدت في النهاية لتوجه تلك المجموعات القبلية ناحية الشرق باتجاه الأردن وكنعان واستقرارهم فيها لقرون أخرى مليئة بالكوارث والحروب، وتم خروجهم منها أيضاً على مراحل متدرجة، بدءاً من إجلاء القبائل الشمالية نهائياً (دولة إسرائيل) على يد الآشوريين، ثم ما بين سبي القبائل الجنوبية إلى بابل (اليهود أو اليهوذ نسبة إلى يهوذا) ولجوء أعداد كبيرة منهم إلى مصر مرة أخرى، ونهاية بالدياسبورا أو الشتات أو الخروج الشامل على يد الرومان حوالي ٧٠م.

أما عن موضوع السخرة وإذلال العبرانيين في مصر، أجد عليَّ لزاماً أن أورد نصاً على لسان (رعمسيس الثاني) مؤرخًا بالسنة الثانية لحكمه حول أسلوبه الفكري المتبع في معاملة عمال المحاجر والبناء وغيرهم، وأورده كما هو من موسوعة الدكتور سليم حسن، الجزء السادس، ص٦٢٣، ٦٢٤.. ومكتوب على اللوحة ما نصه:

[هذا ما يقوله «وسر ماعت رع ستبن رع رعمسيس مري آمون»: أنتم يا أيها العمال الشجعان المهرة الذين يقطعون لي آثاراً بكل كمية، وأنتم يا من يعشقون العمل

(١) إبان مرحلة الخروج.

في الحجر الثمين الممتاز، ويا من يتعمقون في شغل الجرانيت الأحمر والمتمرئين على حجر «بيا»، ومن هم أصحاب شجاعة وقوة في صنع الآثار لأملأ بها كل معابدي التي أبنيها مدة حياتهم. أنتم يا أيها الرجال الطيبون يا من لا يعرفون التعب، ويا حراس العمل طوال الوقت، ويا من ينفذون تماماً بإتقان واجباتهم، وأنتم يا من يقولون إننا نعمل بعد التروي للذهاب لهذه الخدمات في الجبال المقدسة، لقد سمع ما يقوله بعضكم لبعض وإن فيكم لبركة لأن الأخلاق تظهر على حسب الكلام. وإني «رعمسيس مري آمون» الذي ينشئ الشباب بإطعامهم والأغذية وفيرة أمامكم، وليس بينكم من يرغب فيها بشدة. والطعام غزير حولكم ولقد كفيت حوائجكم من كل وجه صحيح حتى تعملوا لي بقلوب محبة، وإني دائماً الحافظ على حوائجكم، وإن المؤن قد أصبحت لديكم أثقل من العمل نفسه لأجل أن تتغذوا وتصبحوا عمالاً صالحين (للعمل)، لأني أعرف تماماً وجيداً عملكم الذي يمكن أن ينشرح له كل من يعمل فيه عندما يكون البطن مملوءاً، فالمخازن مكدسة بالغلال لكم حتى لا يمر عليكم يوم تحتاجون فيه للطعام. وكل واحد منكم عمل شهر. ولقد ملأت لكم المخازن من كل شيء من خبز ولحم وفطائر ونعال وملابس وعطور لتعطير رءوسكم كل أسبوع (الأسبوع عشرة أيام) ولأجل كسائكم كل سنة، ولأجل أن تكون أخمص أقدامكم صلبة دائماً، وليس من بينكم من يمضي الليل يئن من الفقر، ولقد عينت خلقاً كثيراً ليمونوكم من الجوع، وكذلك سماكين ليحضروا لكم سمكاً وآخرين بمثابة بستانيين لينبتوا لكم الكروم، وصنعت أواني واسعة على عجلة صانع الفخار مسوياً بذلك أوعية لتبريد الماء لكم في فصل الصيف. والوجه القبلي يحمل لكم حباً للوجه البحري، والوجه البحري يحمل للوجه القبلي حباً وقمحاً وملحاً وفولاً بكميات وفيرة. ولقد قمت بعمل كل هذا لأجل أن تسعدوا وأنتم تعملون لي بقلب واحد] انتهى.

وبالقطع فإن «رعمسيس الثاني»، وإن لم يكن بالتأكيد هو فرعون الخروج فهو أحد فراعنة السخرة الذين بقوا في ذاكرة شعب إسرائيل، ولكن بالطبع فإنه يمكن اعتبار وجود استثناء من تلك المعاملة الكريمة للعمال لدى الفراعنة هذا الاستثناء يتمثل في المجرمين والمحكوم عليهم بالرق أو النفي في معسكرات العمل، وهذا إجراء

متعارف عليه في التشريع المصري القديم وحتى اليوم، وهؤلاء المجرمون العاملون في محاجر الفرعون يمثلون شريحة كبيرة جداً ممن أطلق عليهم لاحقاً (شعب إسرائيل)، وليس من المصادفة أن نقرأ بعض الاعترافات التوراتية عن حسن معاملة العبيد العبرانيين، ففي صحراء التيه كان العبرانيون دائمي التذمر على موسى قائلين: [ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر. إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع] (خروج ١٦ : ٣)، وكذلك في موضع آخر: [فعاد بنو إسرائيل أيضاً وبكوا وقالوا من يطعمنا لحماً. قد تذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجاناً والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم] (عدد ١١ : ٤ – ٥).. وعلى هذا لم يكن الموضوع ظلماً كما ظنه بسطاء العمال من العبرانيين، بل كانت ظروف اقتصادية تمر بها البلاد المصرية في ذلك الوقت ولم يتفهمها هؤلاء، أو على أقل تقدير أن يتعاونوا فيها، فصح عليهم نعت فرعون لهم [إنهم كسالى] (الخروج ٥ : ٨)، وأترك تقدير الأمر بإنصاف للقارئ الكريم.

وتتبقى في الذهن أسئلة أخرى عن تلك المرحلة، فنرى مثلاً أن (عمرام) والد موسى وهارون، كان قد تزوج من أمهما (يوكابد) التي هي في واقع الأمر عمته المباشرة، تقول التوراة: [وأخذ عمرام يوكابد عمته زوجة له فولدت له هارون وموسى] (خروج ٦ : ٢٠)، والسؤال الذي يطرح نفسه بشدة هو: هل كانت هناك في تلك الآونة ندرة في النساء، حتى يضطر عمرام للزواج من عمته؟! هذا الفعل المجرم والمعاقب عليه بالقتل في الشرائع التوراتية [لا يقترب إنسان إلى قريب جسده ليكشف العورة أنا الرب] (لاويين ١٨ : ٦)، وأيضاً [عورة أخت أبيك لا تكشف إنها قريبة أبيك. عورة أخت أمك لا تكشف إنها قريبة أمك] (لاويين ١٨ : ١٢ – ١٣)، والنص الأخير صريح في نسخة أخرى من التوراة: [لا تتزوج أخت أبيك إنها عمتك. لا تتزوج أخت أمك إنها خالتك] (لاويين ١٨ : ١٢ – ١٣)، وللحبكة الكهنوتية نقرأ [عورة أخي أبيك لا تكشف إلى امرأته لا تقترب. إنها عمتك] (لاويين ١٨ : ١٤)، وللعلم أن يوكابد هي بنت لاوي أخو (قهات) ابني يعقوب. حتى لا يقع القارئ الكريم في إشكالية تفسير كلمة (عمتك) في النصوص التوراتية والتي تعني أخت الأب تارة، وزوجة العم تارة أخرى.

في الواقع وللإجابة على هذا السؤال وحسب ما ورد في النصوص التوراتية فإن تعداد النساء كان وفيراً، وذلك لعدم وقوعهن تحت عقوبة القتل المصرية والتي كانت تتم في الذكور فقط، وعليه فلا يوجد مبرر مستساغ يبيح أو يسمح لعمرام أن يرتكب فعلة (زنا المحارم) لينجب أعظم شخصيتين في تاريخ بني إسرائيل (موسى وهارون)،ولكن إذا استحضرنا نصاً توراتياً يقول: [وكلم الرب موسى قائلاً خذ اللاويين بدل كل بكر في بني إسرائيل وبهائم اللاويين بدل بهائمهم فيكون لي اللاويون. أنا الرب] (عدد ٣ : ٤٤، ٤٥)، نجد أن المطلوب هو اتصال الدم المقدس من الطرفين الأب والأم في دماء (المخلص) موسى، لذا اضطر كاتبو التوراة أن يلفقوا هذه القصة الهزلية على عمرام ويوكابد بنت لاوي، وهذا يبرر سر التعجب من أن التوراة غضت الطرف عن تلك الحادثة فلم تنتقدها، بينما نراهم انتقدوا موسى النقي الدم والعنصر، عندما لم يلتزم بتلك العقيدة فكانت زوجته الأولى مديانية عربية وهي أم ابنيه، وزوجته الثانية حبشية كوشية، ولعل ذلك هو السبب في نزع مراتب الكهانة وهي أعلى المراتب الدينية من ذريته تماماً، وجعلها خالصة لنسل هارون فقط، ذلك النسل الذي تطلب من كاتبي التوراة إفراد سجلات خاصة به لمجرد أنه نقي. وهنا وعلى سبيل مداعبة عقلية القارئ أورد معلومة مهمة، ألا وهي: أن الكاهن (عزرا) العائد من السبي البابلي، فرق ثيابه ورداءه ونتف شعر رأسه وذقنه، وصام صياماً مطلقاً، ولم يكف غضبه حتى قام الكهنة بطلاق زوجاتهم وطردهم وأبنائهم والتبرؤ منهم. لم؟! لأنه اكتشف تلوث هذا الدم الإسرائيلي الكهنوتي المقدس بدماء الشعوب الغريبة. مما جعل الأمر يستفحل حتى تم طرد بعض الكهنة ممن لم يستطيعوا إثبات نسبهم الخالص الدم.

وهنا أجد لزاماً علي أن أورد أهم ملاحم الأساطير الدينية الفرعونية قاطبة، ألا وهي ملحمة (أوزير وإيزيس وحور)، فأوزير هو إله الخلود المصري قد تم قتله على يد أخيه وعدوه الإله (ست) إله الشر المصري الذي اتخذه (الهكسوس) إلهاً، وحتى تضمن زوجته وأخته إيزيس عودته للحياة وبقاء نسله صافياً أخذت من أوزير نطفة بعد موته، ولقحت بها نفسها، لتلد (حور)، ذلك الإله الابن الصغير الذي استطاع أن يقاتل عمه (ست) وينتصر عليه وينتزع منه العرش.

ومن تلك السطور من الأسطورة المصرية نجد عدة أفكار مقدسة، منها وجود نقاء عنصر المخلص بشكل يتوجب فيه زواج الأب الإله من أخته الإلهية، بل وحتى إحداث التخصيب الصناعي للزوجة من الزوج بعد موته لضمان هذا النقاء.

ونستنتج من هذا أن أسطورة موسى التوراتية كانت تحمل نفس الملامح من أسطورة (حور)، ملامح النقاء العرقي التام للمخلص الذي ينبغي أن يكون صافياً في دمه المقدس (دم اللاويين)، التي نذرها الإله يهوه لنفسه، وعدها بكر كل شعب إسرائيل، على الرغم من وجود (رأوبين) الابن البكر الفعلي لإسرائيل (يعقوب)، هذه العشيرة (عشيرة اللاويين) التي لا عمل لها، ولا أرض ترثها، إلا خدمة الإله (يهوه) فقط. وهكذا فإن زواج (عمرام بن قهات بن لاوي) من (يوكابد بنت لاوي) هو تأكيد مباشر وصريح على اتصال الدم اللاوي المقدس من الطرفين في دماء المخلص موسى. مما يجعلنا أن نطلق على هذه الأسطورة التوراتية أنها نوع من أنواع الدعاية المضادة للأسطورة المصرية الأقدم منها عهداً والمستوحاة منها على أقل تقدير. أي أن ذلك المقدس عند الآخرين يتواجد لدينا مثيل له في صورة معاكسة.

وعلى الرغم من أن أسطورة أوزير تنقصها بعض التفصيلات لنقص الوثائق المكتشفة، إلا أنني لا أستطيع منع نفسي من المقارنة بين جزئية أن إيزيس أخذت ابنها المقدس (حور) وخبأته بين الحَلْفاء والبوص في مستنقعات وأحراش الدلتا وهناك أرضعته، مع قصة أم موسى ورضيعها التوراتية. تقول التوراة: [ولما لم يمكنها أن تخبئه بعد أخذت له سفطاً من البردى وطلته بالحمر والزفت ووضعت الولد فيه ووضعته بين الحلفاء على حافة النهر] (خروج ٢ : ٣).

ومن الجدير بالذكر أنني أؤمن تماماً بأن تلك الجزئية من قصة موسى كحادثة هي جزئية صادقة تماماً، لورود ذكرها في القرآن الكريم، ولعل المعجزة الحقيقية ليست هي الأحداث المادية فحسب، بل أن يجسد الله تعالى هذه الأحداث الأسطورية المغرقة في الإعجازية والتي تستعصى على القوانين الطبيعية، في صورة واقعية حقيقية تُري العبرانيين والمصريين على حد سواء أن هناك إلهاً واحداً قادراً على إحداث تلك المعجزات، التي كانت يوماً ما ضرباً من الخيال الأسطوري، على أرض الواقع والحياة.

نعود لنقطتنا محل البحث من القصة، لنرى أن ما حدث لموسى في البلاط الفرعوني كان أمراً مألوفاً منذ عهد الدولة الفرعونية الحديثة، ألا وهو تنشئة أبناء الملوك وأمراء الدول الواقعة تحت السيطرة المصرية في البلاط الملكي لتمصيرهم، أو إرسال أبناء الأمم المقهورة إلى قصور ملوك الأمم المنتصرة كرهينة تضمن عدم الثورة، كما كان هناك وقتئذ تحالفات دولية تبرم بزواج الملوك من بنات بعضهم البعض للهدف نفسه، فوجود موسى في قصر الفرعون وبعلمه لم يكن بالشيء الغريب لتحقيق أحد هذه الأهداف أو كلها.

وهكذا فقد أبحر الطفل الرضيع موسى في سفطه أو تابوته عبر نهر النيل، قذفته أمه بنفس الأسلوب الذي كان يطرح به الآخرون من العبرانيين ليلاقوا حتفهم، فكان طريق الموت هو طريق الحياة له ولعشيرته كلها، إذ التقطته امرأة فرعون[١]، وقامت بحمايته من القتل بل قامت بإقناع الفرعون ذاته بتربيته في القصر الملكي عبر جدال غير كبير،تقول التوراة: [وذهب رجل من بيت لاوي وأخذ بنت لاوي، فحبلت المرأة وولدت ابناً. ولما رأته أنه حسن، خبأته ثلاثة أشهر. ولما لم يمكنها أن تخبئه بعد، أخذت له سفطاً من البردى وطلته بالحمر والزفت، ووضعت الولد فيه، ووضعته بين الحلفاء على حافة النهر، ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يفعل به. فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل، وكانت جواريها ماشيات على جانب النهر فرأت السفط بين الحلفاء، فأرسلت أمتها وأخذته. ولما فتحته رأت الولد، وإذا هو صبي يبكي. فرقت له وقالت: «هذا من أولاد العبرانيين». فقالت أخته لابنة فرعون: «هل أذهب وأدعو لك امرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد؟» فقالت لها ابنة فرعون: «اذهبي». فذهبت الفتاة ودعت أم الولد. فقالت لها ابنة فرعون: «اذهبي بهذا الولد وأرضعيه لي وأنا أعطي أجرتك». فأخذت المرأة الولد وأرضعته. ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون فصار لها ابناً، ودعت اسمه «موسى» وقالت: «إني انتشلته من الماء»] (خروج ٢ : ١ – ١٠).

وعن نفس الجزئية جاء في القرآن الكريم: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا

(١) ادعت التوراة أنها ابنته وليست زوجته.

كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ
أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى
بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ
فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ
أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ
عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾
[القصص].

وقبل أن أخوض في المقارنة بين النصين التوراتي والقرآني، أود أن أنوه أن اسم (موسى) والذي أطلق كاتبو التوراة على معناه (منتشل) وهكذا ورد في نسخة من نسخ التوراة، أنه اسما مصرياً قحاً إذ كلمة (مو) تعني (ماء) وكلمة (سى) أو (سا) تعني (ابن) وعليه تكون التسمية الصحيحة (ابن الماء) وليس (المنتشل من الماء).

وبالمقارنة بين النصين نرى أن النص العبراني سطحي تماماً، يفتقد أولاً لأي إعلان عن الهدف المقصود وراء تلك الأحداث، بينما في النص القرآني جاء إعلان الهدف بوضوح وتركيز قبل بداية سرد الأحداث، قال تعالى: ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ
مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا
شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ
﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ
﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ
﴿٦﴾ ﴾ [القصص].

كما ترى أن الأم في النص التوراتي جامدة العواطف وسط خضم الأحداث الجارية من قتل ذكور العبرانيين، بينما نرى في القرآن أماً ولهى، تنتابها حالة نفسية عرمة، تعود إلى مشاعر إنسانية واضحة يمكن التعرف عليها والإشارة إليها بالأصابع أنها طبيعة الأمومة ومشاعرها، كما أن تلك الأم في القرآن قامت بفعلتها بإرشاد إلهي صريح ومباشر، مما يضفي منطقية وعقلانية للأحداث بعكس النص التوراتي الذي يوضح أماً لا تمتلك ذرة من الرحمة وبدون أي مسئولية تلقي بابنها في النهر لمجرد أنه (جميل أو حسن) أرادت أن تحميه من الحسد فألقت به في النهر ليلقى حتفه هناك، ولم

تكتف بإخفائه فقط، مما يجدر به أن نصف تلك الأم بالبلاهة، فالأم القرآنية ولهى، والأم التوراتية بلهاء، وتلك الفعلة بالطبع هي تصرف ذاتي عفوي لا وجود فيه لأي أثر إلهي. مما يجعلنا نسأل: أكانت حقاً تريد له نجاة ما؟ أم كانت تتخلص منه تبرئة لنفسها أمام سلطات التفتيش المصرية من جنود فرعون؟ سؤال نريد إجابة عليه من كاتبي التوراة لتوضيح هذا الإشكال. ناهيك عن ترك علامة معينة يتسم بها العبرانيون أو على أقل تقدير المواليد مما جعل ابنة فرعون التوراتية تعرف أنه من العبرانيين بمنتهى السهولة دون بذل أي مجهود للتحقق من شخصية الوليد، على الرغم من أن الأحداث الجارية في تلك الفترة هي قتل المواليد الذكور للعبرانيين. مما يضفي على أم موسى التوراتية بلاهة أكثر من ذي قبل أو اتهامها بتهمة القتل العمد لمعرفتها كغيرها بالأحداث الجارية في البلاط الملكي.

كما نرى أيضاً أن امرأة فرعون في النص القرآني لديها أسباب خاصة وإنسانية للتمسك بالطفل الغريب، كما أنها تظهر لنا في موقع آخر من القرآن مناصرة لاتجاهات التوحيد، بل ومؤمنة مخلصة من صفوف المعارضة المصرية لاتجاهات فرعون الدينية والسياسية، ويبدو أنها اعتزلت القصر الملكي وتبرأت من الفرعون وابتعدت في النهاية، قال تعالى على لسان امرأة فرعون: ﴿ ...رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١ ﴾ [التحريم].

وهذا على عكس ما كانت عليه ابنة فرعون التي راقها (جمال أو حسن) الطفل أو رقت لبكائه فقررت الاحتفاظ به كدمية جميلة، ولنا هنا أن نتساءل عن ابنة الفرعون هذه التي تذهب لتستحم على ضفاف النهر، وسط الحلفاء والأعشاب البرية المليئة بالأفاعي والتماسيح وغيرها، رغم أن القصور الفرعونية التي تم اكتشافها ظهرت فيها جلياً هندسة الحمامات الخاصة والبحيرات الصغيرة الآمنة الملحقة بالقصور؟! وعموماً فبعد تلك الحادثة اختفت تماماً شخصية ابنة الفرعون التوراتية.

وعموماً فتلك الحادثة كما جاءت في النص القرآني، وغابت تماماً عن التوراة، تطرح لنا عدة أسئلة تاريخية أخرى، مثل: لماذا أصرت امرأة فرعون على الاحتفاظ بالطفل بشكل التبني؟ أو هل كان ذلك الفرعون لا ينجب؟ وهذه نقطة في غاية الأهمية تاريخياً، فإنها تستبعد تماماً فراعنة مثل (رعمسيس الثاني) الذي قيل عنه أنه أنجب

عشرات الأبناء من قائمة الفراعنة المرشحين لشخصية فرعون الخروج. ثم هل كان نظام التبني معمولاً به في مصر القديمة؟ ولماذا تتبنى امرأة فرعون طفلاً عبرانياً لا مصرياً؟

في الحقيقة أثبتت البرديات الفرعونية[1] ووثائق ووصايا التوريث للأبناء بالتبني كانت موجودة بالفعل في مصر القديمة، مما يظهر دقة المعلومة القرآنية التاريخية التي لم توردها التوراة على الإطلاق. كما أثبتت الوثائق أيضاً أن هذا التبني كان يحدث في حالات العبيد والإماء بصورة غالبة. مما يعكس قوة ومتانة التقاليد الأسرية المصرية القديمة، والتي كانت تعتز بالأنساب وصلات الرحم إلى حد كبير، مما كان يحول دون تقديم أبناء المصريين أنفسهم للتبني. كما أن نظام التبني هذا يمنح التوريث بالوصية.

إلا أن نقطة توريث العرش كان لابد وأن يكون لشخص من دم ملكي خالص نظراً لحساسية هذه المسألة كما تشير الوثائق. أو أن ينتسب ذلك الوريث بالزواج لإحدى الأميرات الملكيات[2].

وعموماً وعلى ما يبدو من القصة القرآنية أن طلب امرأة الفرعون للتبني قد رفض، ونلمح ذلك في خطاب فرعون لموسى ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الشعراء]. أي أن الأمر اقتصر فقط على التربية والإقامة داخل القصر الملكي. ولهذا أيضاً حكمة إلهية ترفض أن يكون هذا الرسول الوجيه المنتظر ابناً لإمام الكفر والذي كان عليه أن يقاتله لاحقاً، حتى ولو كان عن طريق التبني.

تبقى نقطة واحدة في الخلاف القرآني من جهة والتوراتي من جهة أخرى في تلك الجزئية، وهو المتعلق بشخصية المرأة التي التقطت موسى من الماء، هل هي ابنة الفرعون كما ادعت التوراة؟ أم هي امرأة الفرعون كما قال القرآن الكريم؟

في الواقع يمكن حل هذا الخلاف إذا علمنا أن التقاليد المصرية وتاريخ الملوك المصريين كان يجعل من السهل على ابنة الفرعون أن تكون هي ذاتها امرأة الفرعون، إلا أن هذا الحل التلفيقي يعد ضرباً من التخمين غير المقبول، خاصة إذا استحضرنا المكانة الرفيعة لامرأة الفرعون دينياً، مما يتنافى مع سقوطها عمداً في تلك الفعلة المجرمة حسب

(١) انظر موسوعة د. سليم حسن.

(٢) في المذاهب الدينية المصرية القديمة يعتبر الملك أقنوم إلهي، أو ابن الإله ذاته.

الأديان السماوية، ومن جهة النص القرآني، فإن خيوط القصة كلها لا تسمح إلا أن تكون تلك السيدة هي زوجة الفرعون لا ابنته.

فالقصة القرآنية ترينا أولاً أن الفرعون كان أبتر، الأمر الذي جعل زوجته تتلهف على تبني هذا الرضيع الغريب، والحوار الدائر بين الاثنين في القصة القرآنية هو حوار صريح بين رجل وزوجته، كما أن طبيعة الشخصية التي رسمها القرآن في معارضتها للفرعون بكل تلك الشدة يصعب صدورها عن ابنة، أما من جهة النص التوراتي فالمعلومات فيه شحيحة للغاية وتكاد تكون معدومة، إلا أن الفقرة التوراتية [وقال الرب لموسى في مديان اذهب ارجع إلى مصر، لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك] (خروج ٤ : ١٩)، وكذلك: [وحدث في تلك الأيام الكثيرة أن ملك مصر مات] (خروج ٢ : ٢٣)، تعطينا انطباعاً بأن الفرعون الأول قد مات، مما يجعل ابنة الفرعون الأول زوجة للفرعون الثاني أمراً محتملاً، وهذا الأخير ربما تزوجها لعدم وجود ذكر وارث شرعي للعرش، وهذا الحدث قد تكرر مراراً في التاريخ المصري القديم، حيث إنه بعد وفاة الفرعون الأبتر مقطوع النسب، كان قائد الجيش مثلاً يتزوج من إحدى بناته ليصبح له أحقية شرعية في تولي العرش كفرعون جديد، وبذلك تكون ابنة فرعون في وقت ما هي نفسها امرأة أو زوجة فرعون جديد.

وهذا التعليل الأخير لا يحل إشكالية التناقض بين القرآن والتوراة في هذه الجزئية، فلا تزال التي التقطت الطفل هي نفس السيدة في حالة (ابنة الفرعون)، ولم تكن قد أصبحت (امرأة فرعون) الآخر بعد.

ونتحدث بعد ذلك عن الفترة الواقعة بين دخول موسى إلى قصر الفرعون وليداً إلى أزمة الفتنة التي وقعت في المدينة الإسرائيلية شاباً، وهي فترة قليلة التفاصيل، حيث إن التوراة تخبرنا فقط بأن موسى تهذب بكل حكمة وعلوم المصريين، ويبدو أن هذا هو ما كان يشير إليه الفرعون بقوله لموسى: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الشعراء]، وقد أورد القرآن الكريم عن تلك الفقرة قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القصص]. كدلالة على اكتمال التجهيز المبدئي للرسول للدخول في معترك الأحداث ومواجهة الفتنة، قال تعالى: ﴿ ... حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ...﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف]. وهكذا فإن الآية

القرآنية تشير إلى أن موسى قد شب كشخصية قيادية تتسم بالذكاء والحكمة، كما تتسم باستقامة الخلق في تلك المرحلة، إلا أنه كان غير عالم بمهمته الرسالية في المستقبل، لأن إعلان الرسالة الإلهية لم يكن قد حدث في تلك المرحلة بعد.

ننتقل الآن إلى واحدة من أهم الأحداث في حياة موسى عليه السلام، تلك الحادثة الفارقة التي أدت إلى هروبه من مصر ولجوئه إلى منطقة مديان، ألا وهي حادث المدينة الإسرائيلية أو العبرانية، وفي ذلك دلالة كبرى على ضعف النفوذ المصري الحاكم وقتئذ، لأن منطقة مثل مديان المتاخمة لمصر في آسيا، لم تكن تخرج عن السيطرة المصرية إلا في مراحل الضعف السياسي والحربي البالغ.

وعن تلك الحادثة جاء في التوراة: [وحدث في تلك الأيام لما كبر موسى أنه خرج إلى إخوته لينظر في أثقالهم، فرأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً من إخوته، فالتفت إلى هنا وهناك ورأى أن ليس أحد فقتل المصري وطمره في الرمل. ثم خرج في اليوم الثاني وإذا رجلان عبرانيان يتخاصمان. فقال للمذنب لماذا تضرب صاحبك؟ فقال: من جعلك رئيساً وقاضياً علينا. أمفتكر أنت بقتلي كما قتلت المصري. فخاف موسى وقال حقاً قد عرف الأمر. فسمع فرعون هذا الأمر فطلب أن يقتل موسى. فهرب موسى من وجه فرعون وسكن في أرض مديان وجلس عند البئر] (خروج ٢ : ١١ – ١٥).

وقد جاء عن تلك الحادثة في القرآن الكريم ما يلي: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ
غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن
شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ
رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى
ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ
عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى
ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ
ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ
نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ
﴿٢٢﴾ ﴾ [القصص].

وبمقارنة النصين، نجد وكما هو معتاد، أن النص التوراتي هو سرد قصصي مباشر، لا يطرح أي قضايا لإعمال الفكر، فهو أسرع في الفهم، ولذلك - ولعظيم الأسف - قد تم اعتماد هذا الشكل الحدثي التوراتي من قبل معظم مفسري القرآن، كتفسير للقصة القرآنية، دون التعمق والتغلغل في مفردات ومترادفات اللفظ القرآني لاستخراج مدلولاته الخاصة. ولكننا في المقابل نجد أن النص القرآني يطرح على عقولنا أسئلة عديدة تحتاج لإجابات عقلانية ومنطقية منها:

١. إذا كان موسى رجلاً عبرانياً، تربى في طفولته الأولى بين قبائل وعشائر العبرانيين، وله وسطها أصل (أسرة وقبيلة)، بل حسب اللفظ القرآني له فيها (شيعة) والذي يعني الأتباع في الطريقة والأسلوب والمنهج وربما والهدف. فلماذا كان عليه أن يدخل تلك المدينة على حين غفلة من أهلها؟ وما هو مدلول لفظ (شيعة)؟ علماً بأنه لم يكن قد أوحي إليه برسالته حينئذ.

٢. إذا كانت المدينة عبرانية، وهو قد تدخل في مشاجرة أو عراك لصالح الرجل العبراني، وقتل الرجل المصري عدوه وعدو العبرانيين، فلماذا كان الملأ[1] يأتمرون عليه ليقتلوه؟ أي لماذا أراد العبرانيون أنفسهم قتل موسى في تلك الحادثة؟ أو على أقل تقدير لماذا لم يقم العبرانيون أنفسهم بإجارته أو حمايته أو إخفائه أو حتى تسهيل هربه؟! فكان عليه أن يبيت في المدينة خائفاً يترقب، كما كان عليه أيضاً الخروج منها بنفس الحالة التي كان عليها في الليل أي خائفاً يترقب.

٣. إذا كان موسى قتل المصري الكافر أثناء ضربه للعبراني المؤمن، أو من شعب الله المختار كما يدعون، أو من شعب موسى وأهله وشيعته، فلماذا كان يطلب الاستغفار من الله بعد شعوره بالذنب؟ ولماذا تعهد في هذه الحادثة بالذات أنه لن يكون بعد ذلك ظهيراً ونصيراً للمجرمين؟ هل كانت مناصرته للرجل الضعيف مناصرة للمجرمين؟ أوليست النصرة للدين وللأهل واجباً شرعياً لا يستغفر عنه المرء؟

وللرد على تلك الأحاجي ينبغي علينا أولاً التسليم بأن تلك المدينة هي تجمع سكاني إسرائيلي في مصر، أي مدينة عبرانية صرف، مما يجعل مصر هي أول دولة في

(١) الملأ: أهل المدينة، حيث لا يصح منطقياً إطلاق لفظ الملأ إلا عليهم في هذا المقام.

التاريخ يتجمع بها (الجيتو) الإسرائيلي، وهذا هو المفهوم من كلا النصين القرآني والتوراتي، والمتواكب مع منطقية الأحداث، ودخول موسى لهذه المدينة خلسة من الإسرائيليين أنفسهم، مما يشير إلى أن موسى لم يكن ليسمح له بدخول تلك المدينة وأهلها منتبهين، أي أن موسى كان شخصية غير مرغوب فيها من قبل الإسرائيليين فلماذا كان ذلك؟

قد يكون الحل ببساطة هو أن موسى نفسه كان يتخذ الشكل والهيئة المصرية حينذاك، مما جعله مرفوضاً من قبل جموع العبرانيين، وهذا الحل للأسف هو المعتمد حالياً من قبل المفسرين، لكنه يقفز على بديهيات منطقية في القصة نفسها، مثل أن المصريين كانوا بشكل أو بآخر هم السلطة الحاكمة في البلاد، وموسى كان لا يزال منتمياً في الوقت نفسه بشكل ما للبلاط الملكي الفرعوني، أي أعلى سلطة في البلاد كلها، وعليه لم تكن هناك قوة من تلك الجموع المقهورة والمستضعفة والمغلوبة على أمرها تستطيع منعه من دخول المدينة جهاراً نهاراً إذا أراد، كما أن موسى ذاته كان قد قابل مصرياً داخل تلك المدينة يستغل نفوذه وسيطرته وسلطته لضرب العبرانيين المقهورين كما ادعت التوراة، أو قابل اثنين من المصريين وفي يومين متتاليين داخل تلك المدينة كما قال القرآن، مما يشير بجلاء تام إلى أن دخول المصريين وتواجدهم في تلك المدينة لم يكن شيئاً غريباً أو ممنوعاً، بل لماذا أراد الملأ من أهل المدينة أن يقتلوا موسى جزاءً على قتله المصري؟ مما يشير إلى أن المصريين لم يكونوا عدواً مطلقاً لا يسمح له بالتسلل إلى مناطق إسرائيلية مستقلة بل العكس هو الصحيح. كما أن اعتماد هذا الحل قد يقودنا إلى افتراض أن موسى كان قد نصر المصري على العبراني، وأن المصري هو الذي كان من (شيعته)، أما العدو الذي وكزه فخر صريعاً كان (العبراني)، وذلك مرفوض لتضاربه مع النص القرآني الذي يدل على أن القتيل كان هو المصري، يقول تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [القصص].

من كل هذه المعطيات نرفض فرضية أن موسى دخل مدينة العبرانيين خائفاً يترقب لأنه كان على الهيئة المصرية.. ويبقى السؤال مطروحاً: لماذا كان على موسى دخول المدينة خلسة وعلى حين غفلة من أهلها؟

وللإجابة على هذا السؤال علينا أن نشير بأن الأوضاع بين المصريين والعبرانيين حينذاك كانت قد اتخذت شكلاً ثابتاً ومرضياً لكلا الطرفين، وأن الأحوال السياسية كانت هادئة ومستقرة، وأن طرفي المعادلة من عسف مصري، وخضوع إسرائيلي، كانا قد وصلا لمرحلة التوازن، بدليل آخر من القصة نفسها، وهو تآمر العبرانيين لقتل موسى رداً على قتله للمصري، ربما تبرئة لأنفسهم أمام السلطات المصرية، حينما يبلغها أمر حادثة القتل، وما ينطوي عليه ذلك من خطر انفجار الأوضاع، أو ازدياد العسف المصري بازدياد العقوبات، إذن فدخول موسى المصري (العبراني المعروف جيداً للعبرانيين) كان أمراً غير مرغوب فيه، لأن ذلك كان فيه خطورة على الأوضاع المستقرة والمتزنة بين العبرانيين والمصريين، وهذا ما يفسر كلمة (شيعة)، أي أنه كان لموسى أتباع داخل المجتمع العبراني، أي وبأسلوب صريح ومباشر أن موسى كان يقود حركة سرية تدعو لرفض الظلم المصري والقيام بثورة عليه، لكن هذه الحركة لا تلاقي رواجاً شديداً في المجتمع العبراني كله حينذاك. حيث إن هذا المجتمع وقياداته السياسية كان يرتضي الأحوال السائدة والمتوازنة في ذلك الوقت. ولاحظ مقولة العبراني لموسى في تلك الحادثة وفي اليوم التالي مباشرة: [من جعلك رئيساً وقاضياً علينا] (خروج ٢ : ١٤). وكذلك تنص التوراة على أن الله قد أمر موسى عند إبلاغه بالرسالة تحت سفح جبل حوريب، بأن يمثل هو وشيوخ إسرائيل أمام ملك مصر، لطلب الخروج من مصر، تقول التوراة: [اذهب واجمع شيوخ إسرائيل وقل لهم الرب إله آبائكم إله إبراهيم وإسحق ويعقوب ظهر لي قائلاً إني قد افتقدتكم وما صنع بكم في مصر. فقلت أصعدكم من مذلة مصر إلى أرض الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً. فإذا سمعوا لقولك تدخل أنت وشيوخ بني إسرائيل إلى ملك مصر وتقولون له الرب إله العبرانيين التقانا. فالآن نمضي سفر ثلاثة أيام في البرية ونذبح للرب إلهنا] (خروج ٣ : ١٦ – ١٨). لكننا لا نرى لاحقاً في مشاهد تلك الدعوة شيوخ بني إسرائيل فقد اقتصر الأمر على موسى وهارون فقط، مما يشير لرفض هؤلاء الشيوخ الامتثال لأوامر الإله ولدعوة موسى ورغبة هذا الإله في الخروج من مصر، تلك الدعوة المضادة لرغبات ملك مصر، والنصوص التوراتية الواردة من قبل تدل على الاستقرار النفسي لجموع العبرانيين، وربما تكون آية قرآنية واحدة كفيلة بإيضاح الأمر

كله، يقول تعالى: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يونس].

ونرى من تلك الآية أن الذين آمنوا بتلك الدعوة هم الشباب من قوم موسى، وهؤلاء الشباب كانوا يخافون على أنفسهم ودينهم من فرعون كما كانوا يخافون أيضاً من قومهم هم، وهم الشيوخ القادة العبرانيين الموالين للحكم المصري متمثلاً في فرعون ذاته.

ويصف زينون كاسيدوفسكي في كتابه (الواقع والأسطورة في التورات) ما نصه: [وبقي الإسرائيليون في أرض جاسان حيث مارسوا الرعي، ولم يلق أحد بالاً إلى أولئك الرعاة البسطاء الذين عاشوا على أطراف أراضي البلاد بعيداً عن مركز القرار السياسي. وما تجدر الإشارة إليه إلى أن تلك الفترة كانت مرحلة عاصفة في تاريخ مصر، ولم يفكر أحد في أن يضطهد الإسرائيليين في يوم من الأيام خاصة وأنهم أخذوا يتمثلون الثقافة المصرية رويداً رويداً، بل وتشير معطيات موثوقة إلى أنهم اعترفوا بعبادة آلهة المصريين ومارسوها، ولم ينقذهم من التمثل النهائي سوى تمسكهم بلغتهم وبعادات وتقاليد آبائهم. على العموم يمكن القول إن المرحلة الطويلة التي قضاها الإسرائيليون في أرض جاسان هي مرحلة انحلال روحي وخمول لا معنى له] انتهى.

ونستنتج من جميع ما سبق أن الأوضاع كانت مستقرة وهادئة إلى حد كبير داخل الأوساط الإسرائيلية، وأن موسى كان يقود حركة سرية داخل المجتمع الإسرائيلي تدعو إلى الثورة والجهاد ضد الظلم والعسف المصري، بدافع العصبية أو الغيرة القومية على قبيلته، وتلك الحركة الثورية الجديدة لم تكن تلاقي قبولاً لدى قيادات وشيوخ الشعب العبراني، خوفاً من بطش وقهر السلطات الحاكمة وإبقاءً على استقرار الأوضاع، لذا فإن حادثة مثل مقتل رجل مصري داخل منطقة العبرانيين كانت كفيلة بإيقاظ فتنة لا يحمد عقباها. وعلى ذلك كان قرار الملأ العبراني بقتل موسى رد فعل طبيعي كنوع من إظهار الولاء للمصريين والقضاء على إرهاصات تلك الفتنة المتوقعة، لكن موسى علم عن طريق أفراد حركته السرية- المتغلغلين داخل صفوف أصحاب القرار السياسي العبراني - بمؤامرة قتله، فكان عليه الهرب ووقع اختياره على أرض مديان في آسيا والمستقلة عن النفوذ المصري الفرعوني كمحطة للجوء إبقاءً على حياته.

وللإجابة عن شعور موسى بالذنب والندم على قتل المصري وطلب التوبة من الله وإعلان براءته من مناصرة المجرمين أثناء تلك الأزمة، لا يجب أن يذهب عن أذهاننا أنه لم يوح إليه أو يكلف برسالة من قبل الله، فكان القتل بدافع العصبية والغيرة كما سبق أن نوهت أو ما شابه ذلك، يقول تعالى: ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشعراء]، ففي نظر الفرعون أن تلك الفعلة الشنعاء تعد كفراً بفضل التربية في قصره، وكان ينبغي عليه الولاء للحكم المصري لا معاداته، يقول تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الشعراء]، وكان رد موسى عليه بأن هذا الولاء لا قيمة له للطغاة، مع اعترافه الكامل بفعلته وأنه كان ضالاً ولم يهتد للطريق الإلهي السليم بعد، ونلاحظ من هذا الحوار الدائر بين موسى وفرعون، تهكم موسى على تلك التربية في البلاط الملكي التي لم تشفع له من العقاب بالموت مما دعاه للهروب إلى خارج البلاد وليس البلاط الملكي فحسب، ويظهر ذلك من لهجة فرعون التي أتبعت فضل التربية بالمن والنظر إليه على أنه عبد مهما علا قدره في البلاط الملكي، ويظهر ذلك من رد موسى على الفرعون، يقول تعالى: ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الشعراء].

ونلاحظ من الآية الأخيرة استنكار موسى الواضح على استعباد بني إسرائيل بل وجعلهم عبدة لآلهة المصريين، مما كان له الأثر الواضح في تكليف موسى بالرسالة الإلهية بأن يطلب هو وشيوخ بني إسرائيل من ذلك الفرعون العاتي الطاغي رمز الكفر الخروج من مصر والذهاب إلى أرض الكنعانيين لكي يعبدوا إلههم الواحد ويذبحوا له الذبائح والقرابين بدلاً من الذبح لآلهة المصريين التي لا تشفع ولا تنفع ولا تحمي فرعون وأهله بل ومصر كلها من ضربات الرب لهم في مراحل لاحقة.

وأكتفي بهذا القدر من الاستنتاجات على تلك الجزئية وأذهب بالقارئ الكريم إلى مدين أو مديان حيث موسى هناك.

بعد حادثة قتل المصري في المدينة العبرانية بمصر، هرب موسى ولجأ لمدينة مدين، تلك المدينة التي يقطنها سكان ذوو أصول عربية، تقول التوراة إنهم ينتسبون بالقربى البعيدة إلى بني إسرائيل وإلى عرب الحجاز أيضاً، حيث إنهم - حسب ما ذكرت التوراة - هم أبناء إبراهيم عليه السلام من زوجته (قطورة)، وقد حدد المؤرخون موقع هذه المدينة في الاتجاه الشرقي من خليج العقبة، قد دلت الأبحاث الحديثة أن المديانيين العرب سكان سيناء الذين منهم عائلة حوباب ويثرون حمو موسى وكاهن مديان، والذي كانت صناعتهم الحدادة، كانوا يستعملون الحروف الأبجدية العربية حوالي سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد، وهي أقدم الحروف الهجائية للألف باء، والتي استعارها الإسرائيليون لتكوين حروف لغتهم، ولكن الذي استنبطها وطورها أصلاً هم الكنعانيون سكان سوريا وأخذها منهم وطورها أيضاً اليونانيون[1]، وعلى العموم فإن الغالبية العظمى من محللي وناقدي الوثيقة التوراتية تاريخياً، يرون أن مرحلة تواجد موسى في مدين هي الملاذ الذي أدى إلى خروج الديانة اليهودية في شكلها الحالي. وبالأخص من حيث الفلسفة اللاهوتية، وهؤلاء المحللون يرون أن الإله (يهوه) هو الشكل النهائي من إله الحرب المدياني، وأن موسى حاول فرض هذا الإله على القبائل الإسرائيلية كلها بشكل إله موحد، بل وأن فترة تواجد موسى في مدين كانت هي مرحلة التدريب العملي له على طبائع الصحراء القاسية، تلك التي كان على موسى أن يقود قومه خلالها لعقود من الزمن، وعلى العموم فإن كاتبي التوراة لم يعطونا رداً صريحاً ومباشرًا للرد على تلك النظريات.

إلا أن القرآن الكريم يعارض تلك النظريات معارضة تامة من حيث الحدث ذاته قبل الفكرة الدينية المعلومة للجميع، فمن حيث الحدث يخبرنا أن موسى عليه السلام قضى في مدين من ثماني إلى عشر حجج أو سنوات قمرية فقط، لا أربعين سنة كما ادعت التوراة، وهي فترة ليست بكافية لحدوث هذا الانقلاب الفكري الكامل.

كما يخبرنا أيضاً أن بدايات الرسالة الدينية كانت قد ظهرت في تلك الحقبة، التي كان فيها موسى معلماً لأهل مدين لا متعلماً منهم، يقول تعالى: ﴿...وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا

(١) انظر كتاب تاريخ إسرائيل، الأب متى المسكين، ص٧.

فِى أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القصص]، كما أن الوصف القرآني لوصف فترة مكوث موسى في مدين بلفظ (حجج)، إنما يشير إلى اتصال موسى أثناء تلك الفترة في تلك المنطقة من شمال الحجاز بعقيدة إبراهيم الحنيف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، جد (موسى اللاوي) وجد بني إسرائيل من (سارة)، وجد (العرب) من (هاجر)، وجد (المديانيين) من (قطورة) على حد سواء. والذي وصل إلى أداء مناسك الحج في مكة، إلى البيت الحرام الذي أرسى قواعده إبراهيم عليه السلام، والذي لا يبعد كثيراً من الناحية الجغرافية عن أراضي مدين.

نبدأ النقاش حول مرحلة مدين بذكر أن التوراة عينت شخصية حمي موسى بأنه (كاهن مدين)، وهذا الوصف هو أعلى المراتب الدينية في تلك المنطقة، ولفظة (كاهن) تحمل نفس المدلول في التوراة وهي أعلى المراتب الدينية أيضاً، وكان القرآن على عكس التوراة في ذلك الوصف لهذا الرجل، بل يعطينا انطباعاً بأنه رجل مسن وصالح السيرة، وربما يكون متوسط الحال، مما يتناسب مع تزويجه رجل غريب معدم بابنته نظير معاونته في رعي أغنامه ومواشيه، حيث لم يكن له خدم يساعدونه في الرعي أو حتى إحضار الماء من البئر، ويحق لنا من هنا أن نتساءل عن هذا الكاهن الرفيع المرتبة في مجتمع مدين، والذي كان الرعاة والسوقة والدهماء يطردون ابنتيه عند البئر فلا تستطيعان سقي مواشيهما إلا في النهاية بعد أن يقوم الجميع بقضاء حوائجهم من البئر حسب ما روته التوراة ذاتها في تلك الحادثة؟![1].

وهناك نقطة خلاف ثانية بين القرآن والتوراة في تلك الجزئية، ألا وهي أن القرآن الكريم ذكر بأن موسى عليه السلام قضى في مدين من ٨ - ١٠ سنوات قمرية، قام فيها برعي مواشي حميه كمهر للزواج من ابنته صفورة، أما التوراة فقد ادعت أنه قضى ٤٠ سنة، ولم تحدد لنا أي من هذه السنوات كانت محددة لذلك المهر.

(١) شخصية حمى موسى هذا أثيرت شائعة حولها بأنه هو النبي القرآني «شعيب» الذي كان نبياً لأهل مدين، وهذا النبي لا وجود لأي أثر له في فترة تواجد موسى في تلك الحقبة، كما أن أهل مدين قد أهلكوا بكارثة طبيعية في زمن النبي شعيب، وهذا ليس له ذكر في قصة موسى في القرآن، حيث إن خطيئة أهل مدين هي الغش في الموازين والمكاييل والتجارة مما يشير إلى ما للتجارة من أهمية في تلك المنطقة المهمة الواقعة بين مصر وآسيا والمستقلة عن النفوذ المصري إبان عهد موسى.